



قد يرتكب الفرد هفوة يسيرة، ثم يقلع عنها وينجو من عقابها، وقد يقع في ورطة تفسد عليه حاضره ومستقبله جميعاً.. والجماعات في ذلك كالأفراد قد ترتكب إثماً خفيفاً فتمر به، وتخلص من آثاره، وقد تقع في ورطات عسراً تفسد عليها يومها وغداً وتحبط عملها في الدنيا والآخرة.

إن الشر مراتب وأثارة متفاوتة، وأقل الأخطاء فكراً ما لحقه يقظة الضمير وسرعة الندم، وما أعقبهه توبة ترقع الخرق وتداوي الجرح، وأشدتها سوءاً ما صحبه الإصرار العنيد وانضم إليه إخراص الأصوات الناصحة، وإخماد أنفاسها، ثم المضي في طريق الغواية دون الاستماع إلى واعظ يردع أو ناقد يجار، وقد كان ذلك دأب اليهود قديماً فقال الله فيهم: {إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرنون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم * أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين}.

ويذور الشر تنبت في أكباف المجتمع أول الأمر مخالفات محدودة الخطر محصورة الشأن، ولكنها مع الإهمال والاستهانة لا تزال تنموا وتغليظ حتى يفسد ما حولها، كالنبات الشيطاني عندما يترك فيكثر فيلتهم ما حوله، وملحوظة تاريخ الأفراد والمجتمعات تتطيق بهذه الحقيقة. وذلك هو السر في أن النبي - صلى الله عليه وسلم - يوصي بوأد الشر في مدهع عندما يقول: ((اتبع السيدة الحسنة تمحها)), أي لا تنتظر ولا تتمهل بعد وقوع الخطأ بل أسرع إلى مداوته قبل أن يستفحلا ضرره. ومع هذا الإرشاد الواعي نجد إنذاراً آخر لمن يؤثرون الاسترخاء والتباطؤ، فإنهم قد يغترون بالإهمال الإلهي فلا يفكرون في متاب أبداً، وهنا نسمع قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : ((إِنَّ اللَّهَ لِيَمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخْذَهُ لَمْ يَفْلُتْهُ... وَتَلَاقَ قَوْلَهُ - تَعَالَى - : {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخْذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَيْمٌ شَدِيدٌ} [هود: 102]).

ذكر «ابن كثیر» في تاريخه «إن الله أوحى إلى نبي من أنبياءبني إسرائيل يقال له (أرميا) حين ظهرت فيهم المعاصي: أن قم بين ظهرياني قومك فأخبرهم أن لهم قلوباً ولا يفقهون، وأعيناً ولا يبصرون، وآذاناً ولا يسمعون، وإنني تذكرت صلاح آباءهم فعطفني ذلك على آبنائهم، إن الدواب تذكر أوطانها فتنزع إليها، وإن هؤلاء القوم تركوا الأمر الذي أكرمت عليه آباءهم والتمسوا الكرامة من غير وجهها، أما أخبارهم فأنكروا حقي، وأما قراؤهم فعبدوا غيري، وأما نساكهم فلم ينتفعوا بما علموا، وأما ولاتهم فكذبوا علىٰ وعلىٰ رسلي، وإنني أقسم بجلالتي وعزتي لأهيجن عليهم جيوشاً لا يفهون ألسنتهم ولا يعرفون وجوههم

ولا يرحمون بکاءهم، ولأبغثن فيهم ملکاً جباراً فاسياً له عساکر کقطع السحاب، ومواکب کأمثال الفجاج، لأن خفقات رایاته طیران النسور، وكأن حمل فرسانه کر العقبان یعیدون العمran خراباً ويتکون القرى موحشة». وقد حاول اليهود أن يخدعوا الله ببعض الطاعات المغشوشة، وأن يتخلصوا من الهوان الذي نزل بهم اصطناع توبه سهلة، توبه تجعلهم یلبسون ثياب التقوی على کيان من الکنو.

والمنافق يستطيع أن يقوم ببعض الصلوات والمرائي يستطيع أن يأتي بعض الصدقات، لكن قلبهما بعيد عن اليقين، وفكهما غريب عن الحق، ولذلك جاء فيما أوحى الله لعيسى بن مریم -عليه السلام- على ما روی ابن کثير: «وسيقول لك بنو إسرائيل صمنا فلم يتقبل صيامنا، وصلينا فلم تقبل صلاتنا، وتصدقنا فلم تقبل صدقاتنا، وبكينا بمثل حنين الجمال فلم يرحم بکاؤنا، فقل لهم: ولم ذاك وما الذي یعنی؟ أو ليس خزائن السماوات والأرض بيدي أنفق منها كيف أشاء؟ أو لست أجدود من سئل وأوسع من أعطى، أو أن رحمتي ضاقت؟ وإنما يتراحم المتراحمون بفضل رحمتي. ولو لا أن هؤلاء القوم يا عيسى بن مریم غروا أنفسهم بالحكمة التي تورث قلوبهم استحباب الدنيا على الآخرة لعرفوا من أين أتوا.

إذاً لا يقنا أن أنفسهم هي أعدى الأعداء لهم، كيف أقبل صيامهم وهم يتقوون عليه بالأطعمة الحرام؛ وكيف أقبل صلاتهم وقلوبهم ترکن إلى الذين يحاربونني ويستحلون محارمي؟ وكيف أقبل صدقاتهم وهم يغصبون الناس عليها فيأخذونها من غير حلها؟ يا عيسى إنما أجزي عليها أهلها، وكيف أرحم بکاءهم وأيديهم تقطر من دماء الأنبياء، ازدلت عليهم غضباً.. إن تاريخ هؤلاء الناس ملان بالعبر والمثالات، وجدير بنا أن نتدارسه ونستفيد منه.

فنحن العرب الأمة الوارثة للوحي الإلهي الأخير، كلنا أن نعمل به، وأن ندعوا غيرنا إليه، أو بتعبر آخر: كلفنا أن نصوغ أنفسنا في قالبه صياغة جميلة معجبة. وأن نغرى الآخرين باتباعنا واقتفاء آثارنا والنصح على منوالنا... وقد نجح آباءنا الأوائل في ذلك المضمار فكانوا في العالم الذي لم تنقض ذكرياته طليعة حضارية رائعة.. ثم تسالت إلينا علل الأمم البائدة. فطوط رایاتنا بعدم أزдан بها الأفق دهراً طويلاً. وانسحبنا من الميدان بغير نظام. وخيم على العالم الإسلامي أجمع سكون البلى والضياع.. ثم بدأت طلائع دورة تاريخية أخرى شق طريقها رجال من أمثال جمال الدين الأفغاني أرادوا أن ينفخوا الحياة في الأمة الهامة. وأن يذكروها برسالتها الخالدة.

وليس عجياً أن تکثر العوائق أمام هذا النهوض الواجب؛ فإن عداوة الحق قديمة قدم الشيطان نفسه، ومذ خلق الله آدم ومکن في الأرض ذريته، قال إبليس لله: {قَالَ فِيمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَأَتَيْنَاهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ} [الأعراف: 17]. وهذه الخصومة الأزلية للحق هي التي جعلت أعداء الإسلام يکنون له الحقد الدفين ويتبرون عليه الشر المستطير، وقد أثبأنا الله -تبارك اسمه- بحقيقة هذا الموقف حتى نحسن الإعداد له ولا نؤخذ على غرة من قبله، فقال: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفُرُ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْهُ اللَّهُ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرْدُوْكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ أَسْتَطَاعُوْا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمْتُ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [البقرة: 217]. والارتداد الشامل قد يكون سوءة مخزية لا يرضها لنفسه إلا أمرؤ مهين يقبل الانسلاخ عن دینه جملة وتفصيلاً. ولا حديث لنا مع هؤلاء...!! إنما الحديث مع نفر آخر من المسلمين تعرف منهم وتذكر! يخلطون البدع بالسنن والحسنات بالسيئات والمعاصي بالطاعات. يأخذون من الدين ما يعجب، ويتکون ما ینبو عن أذواکهم المريضة... مع أصحاب هذه السيرة المضطربة نريد أن نقف طويلاً لنقول للقوم إن الله -جل جلاله- لا يعامل بهذه الطريقة. ولا يؤمن أمة تعبد بوحیه هذا العبث... وقد روی لنا ابن کثير كيف دعا اليهود وبکوا!! وهیهات؛ {فَمَا يَكُنْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ} [الدُّخْنَ: 29]. المجتمع المؤمن یعرف معرفة جيدة مثله العليا، ويسیر نحوها بثبات،

وقد يفرط بعض أفراده في واجباتهم بيد أن هذا التفريط الفردي لا يعدو أن يكون على جزئية لا تظهر حتى تخفي، ثم سرعان ما تغلب روح المجتمع الجاد روح الفرد الماجن.

فتمضي القافلة كلها إلى غايتها المرسومة. إن أجود البيئات صحة لا تخلوا من أفراد قد يصابون بالحميات المهلكة. وهذه الإصابة لا ينكر وقوعها، بل تسجل في إحصاءات متداولة، وتسجل معها كذلك كيف عالجت البيئة السليمة بعض أجزائها حتى صح أو هلك، ليحل محله أقوى وأفضل. إننا نريد أن ندقق في حماية الكيان العام للمجتمع.

وأن نجعل الضمير العام للأمة حساساً بما يؤثر في صفاته من خير أو شر. وقد سقنا من أحوالبني إسرائيل القدامى ما يستحق التقليل والاستنباط، والعبرة المستفادة من هذا التاريخ أن يتيقظ الدعاة والمرشدون إلى بذور الفتنة ومغارس الجريمة.

يقتلونها في مهدها حتى لا تقتلهم عند اشتادها. إن الحرص على النوافل قد يكون سياجاً للحفاظ على الفرائض. وفي ذلك يروي أبو داود عن ابن مسعود - رضي الله عنه - : "إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - علمنا سنن الهدى.. وإن من سنن الهدى الصلاة في المسجد الذي يؤذن فيه، وما منكم عن أحد إلا له مسجد في بيته، ولو صلیتم في بيوتكم وتركتم مساجدكم تركتم سنة نبيكم، ولو تركتم سنة نبيكم لکفرتكم". وشرح هذا الكلام أن ابن مسعود - رضي الله عنه - يخشى أن نتعود ترك الجمعة فيحر هذا إلى ترك الصلاة نفسها، ثم ينتهي الأمر بالنكوص عن متابعة النبي - صلى الله عليه وسلم - وعن الانسلاخ من الإسلام جملة. والذي يلاحظ سير الآداب العامة، وأسلوب الخروج على الفرائض والآداب يتأكد من صدق هذه الملاحظة.

إن المرض المجهز قد يبدأ صداعاً تافهاً.. نسأل الله المغافاة..

وصلى الله على سيدنا محمد وآلـه وصحبه وسلم،،،

المصدر: رابطة العلماء السوريين، نقلأ: مجلة لواء الإسلام، العدد الثالث، ذي القعده 1389هـ، السنة 24.

المصادر: